9

جهاز الاستخبارات في الشرق

طريقة عمل شعبة الجيوش الأجنبية شرق
وثيقة (مقطع): الاستخبارات في الشرق

obeikandl.com

obeikandl.com

طريقة عمل شعبة الجيوش الأجنبية شرق

في تقرير وضعه اللواء السابق راينهاردت جيهلن وضباط أركان آخرون بتكليف من الجيش الأميركي، اعتبر العمل الاستخباري في الشرق خدمة قامت بها شعبة الأركان الثالثة هناك. أقدم في ما يأتي مقاطع من قسم من هذه الدراسة الشاملة (266 صفحة)، ينصب على طريقة عمل شعبة الجيوش الأجنبية شرق (مناهج تقويم الاستخبارات الألمانية في الشرق). مع بدء حملة روسيا في 22 حزيران/ يونيو 1941، تولت مجموعات الجيش الألمانية والوحدات التابعة لها من جيوش وفيالق وفرق جمع المعلومات عن العدو وتقويم أوضاعه. وأسندت مسؤولية هذا العمل إلى ضباط الشعبة الثالثة الأركان (ضباط شعبة الأركان الثالثة للمهام الخاصة)، الذين كانوا في الوقت نفسه ضباط مكافحة، مسؤولين عن معالجة وتوجيه مواقع الحصول على المعلومات، التابعة لشعبة المكافحة بقيادة الأدميرال كاناريس. وكان لكل مجموعة جيش قيادة استطلاع جبهة أولى وثانية وثالثة.

أولى = جمع معلومات عسكرية.

ثانية = مسؤولة عن التخريب والأنشطة الهدامة، وتندرج تحتها الاتصالات مع الأقليات الإتنية، كالاتصالات مع أوكرانيا على سبيل المثال، التي كانت مصدر معلومات استخبارية قيمة عن العدو.

ثالثة = التجسس المضاد ومكافحة الجاسوسية، وتلعب هنا دورا مهما

مناورات تضليل العدو بواسطة عملائه، الذين تم كشفهم.

إلى جانب قيادات استطلاع الجبهة التابعة لمجموعة الجيش، كانت الجيوش تردف بمجموعات استطلاع جبهة. وكان يتم بطريقة مشابهة تنظيم استخدام شعب أفواج وكتائب الاستخبارات والاستطلاع اللاسلكي. كما كان تنظيم الاستطلاع الجوي، الفائق الأهمية، يتفق مع هذه الأشكال التنظيمية، مع أن الأمر لم يكن يخلو هنا من احتكاكات، نجمت عن اعتماد الجيش على التعاون مع سلاح الجو، الذي قد تحول بقيادة مارشال الرايش هيرمان جورينج إلى قسم مستقل من القوات المسلحة. في العادة، كان ضابط شعبة الأركان الثالثة لدى مجموعة الجيش عقيدا في الأركان، وكان لدى الجيش رائدا في الأركان، بينما استخدمت أعداد متزايدة من ضباط الاحتياط لدى الفرق، بعد مرورهم بفترة تدريب قصيرة لدى شعبة الجيوش الأجنبية شرق في بوزن، يعرفون خلالها بعض الأشياء حول ما يجب عليهم القيام به.

كان رصد العدو على الجبهة، أي لدى الفرق، قليل التعقيد نسبيا. كان الجيش السوفياتي يعمل بطريقة منهجية جدا، فسهل هذا معرفة مقاصده بالرصد: فإن اعتمر جنوده خوذاتهم، وجب توقع هجوم وشيك يقومون به، وإذا اعتمروا قبعات ميدانية، كان معنى هذا أنهم لن يهاجموا، وإذا وضعوا كمامات الغاز، كانوا في حالة دفاع، وإذا حملوا عتاد الهجوم دون كمامات الغاز، كان ثمة هجوم قريب، فإن رصدوا في حالة توتر وهم يركضون عبر المنطقة التي تتعرض لقصف الألمان، كان معنى هذا أنه وصلتهم تعزيزات جديدة، وأنهم على وشك القيام بهجوم[100].

لم يتمتع ضابط شعبة الأركان الثالثة الألماني بالمكانة التي كانت تخصه بها القوات المسلحة في البلدان الأخرى. يظهر هذا من التسمية: فهو لدى القوات المسلحة الأنجلوساكسونية وفي فرنسا ضابط شعبة الأركان الثانية،

الذي يعالج وضع العدو في أركان الجيش. وهو أعلى في الهرمية العسكرية من ضابط شعبة الأركان الثالثة، ضابط شعبة العمليات. بينما هو لا يأتي في قوات ألمانيا المسلحة بعد رئيس شعبة العمليات ورئيس المقر. تؤكد مقارنة الرتب بدورها الأهمية الأكبر، التي يحتلها تقويم العدو لدى قوات الدول الأخرى المسلحة، فقد كان الضابط الثاني في مجموعة الجيش الأنجلوساكسوني جنرالا، ولدى الجيوش عقيدا، بينما كان جيهلن، رئيس شعبة أركان الجيوش الأجنبية شرق عقيدا، ولم يرفع إلى رتبة عميد إلا في 1/ 12/ 1944. في حين كان خصمه، «راينهارد جيهلن» الجيش الأحمر، ليونيد أونيانوف لواء[101].

تؤكد المقارنة العددية أيضاً الأهمية الأكبر، التي كانت الجيوش الأخرى تخص بها وضع العدو: فقد كان ملاك أركان ضباط الاستخبارات في مجموعة جيش ألمانية يقتصر عادة على 13 ضابطا و18 مساعد ضابط وجندي. أما لدى مجموعة جيش أميركية فكان يتكون من 53 ضابطا ومساعد ضابط وجندي، أي من ضعف عدد الألمان تقريبا.

كانت أركان ضباط الاستخبارات / المكافحة تتكون لدى مجموعة الجيش من:

مجموعة أولى: معالجة وضع العدو.

مجموعة ثانية: استخدام وحدات مزيفة من أجل المكافحة.

مجموعة ثالثة: مراقبة الرسائل.

مجموعة رابعة: شرطة ميدانية سرية.

مجموعة خامسة: الدعاية.

وكانت أركان الجيوش والفرق الاستخبارية / المكافحة منظمة بطريقة مماثلة. تؤكد الموافقة على لائحة الخدمة في الجيش (= سرية) 92: «دليل

الخدمة في جهاز الأركان العامة خلال الحرب» القسم الأول والثاني، في الاول من آب/ أغسطس 1939، وعلى لائحة الخدمة رقم 89 سنة 1941 «جهاز الاستخبارات المتخصص بالعدو»، بطريقة صريحة أن على ضابط شعبة الأركان الثالثة معالجة أوضاع العدو، مع بقاء تحديد مسؤولية الشعبة من اختصاص الآمر أو القائد أو / ورئيس الأركان، مع خضوع ضابط الشعبة لضابط الأركان الأول، المكلف بالقيادة. هذا يعني أن كل آمر وقائد ورئيس أركان وضابط أول يتمتع بصلاحية رفض مشروع تقرير ضابط الاستخبارات عن وضع العدو، ويستطيع إعطاءه الأمر بوضع صياغة أخرى له. وإذن، فإن قائد القوات المسلحة والجيش الأعلى كان يتصرف بطريقة تتفق تمام الاتفاق مع بنود لائحتي الخدمة، حين كان يرفض التقويم المقدم إليه عن العدو.

بدوره، يعتبر جيهلن في دراسته أنه كان أمرا طبيعيا تماماً «أن لا يلزم رئيس الأركان العامة نفسه بتقويم وضع العدو».

نلاحظ، عندما ننظر إلى الماضي، أن هذا الإجراء أعفى ضابط شعبة الأركان الثالثة، الذي يعالج وضع العدو، من المسؤولية، وحتم أن يصير تقويم وضعه أداة كثيراً ما استخدمها الآمرون والقادة لطلب قدرات بشرية، ودبابات، ووقود، وذخائر إضافية. يسمح هذا لنا بفهم الوضع الصعب، الذي كانت شعبة الجيوش الأجنبية شرق تواجهه كل يوم، من أجل صياغة تحليل موضوعي ومطابق بعض الشيء لوضع العدو الحقيقي[102].

واجهت القيادة السوفياتية بدورها مصاعب تتعلق بهذه المشكلة. يصف جنرال الجيش سيرجي شتيمنكو، رئيس إدارة العمليات في الأركان العامة للجيش الأحمر منذ سنة 1943، خطأ جنرال الجيش فاتوتين، قائد الجبهة الجنوبية الغربية الأعلى (= مجموعة جيش)، الذي «حشر جميع المعلومات في روايته الخاصة»[103].

إلى هذا، كان قادة مجموعات الجيوش الألمانية يقاومون، عندما يشعرون بالغبن تجاه تقويمات شعبة الجيوش الأجنبية شرق، أو كانت هذه مغايرة لآرائهم. وقد كتب المارشال فون بوك، القائد الأعلى لمجموعة جيش الجنوب، يوم 4/ 3/ 1942 في يومياته: تقول شعبة الجيوش الأجنبية شرق في تقريرعن الوضع، كتبته بتاريخ 2/ 3، أن الهجمات جنوب إسيوم لا تشكل هجوما كبيراً بقيادة موحدة، بل هو مجرد أعمال متفرقة. تهاجم جنوب إسيوم عشرون فرقة مشاة، وخمس فرق حرس وعشر فرق فرسان على جبهة لا يتجاوز عرضها 120 كيلومترا، تمحور نشاطهم فيها على نقاط ثقل معينة؛ فلا بد من إبلاغ قيادة الجيش أن تصور شعبة الجيوش الأجنبية شرق «يتناقض أشد التناقض مع تقويمي». وأوضح رئيس الأركان العامة هالدر للمارشال خلال محادثة هاتفية مع فون بوك أن تقرير الشعبة، الذي شكا منه، كان «تعيساً» بعض الشيء»[104].

ليس معروفا بعد إن كان هذا «العطل» من الأسباب، التي أدت إلى استبدال العقيد كينزل، رئيس الشعبة، يوم 20 آذار/ مارس سنة 1942، بالمقدم جيهلن. يزعم المطلعون على حقيقة الأمور أن التقويمات غير المتفائلة حول أوضاع العدو لم تكن سبب تغيير رئيس الشعبة، الذي استبدل لأنه كان يغادر مكتبه معظم الأحيان عند نهاية الدوام الرسمي، ليذهب إلى صديقته الشقراء وهو ينفث دخان غليونه من فمه بسعادة، مارا خلال ذلك تحت شباك رئيس الأركان، الذي يعمل إلى آخر الليل، وكان يجيب عن اسئلة هالدر بأقوال مثل «نحن لا نعرف هذا. . . فمن الأفضل أن نسأل ستالين ذاته». وهي أجوبة كانت تستفز هالدر، الذي لم يكن معروفا بميله إلى الدعابة[105].

نصح رئيس شعبة العمليات اللواء أدولف هويزنجر رئيس الأركان العامة برئيس مجموعة الشرق الخاصة به راينهارد جيهلن، الذي كان قد كتب عنه في رسالة إلى زوجته: «والسيد جيهلن مجتهد جدا»[106].

تولى جيهلن الشعبة يوم 1 نيسان/أبريل 1942، وكان بين معاونيه آنذاك الرائد في الاستخبارات جيرهارد فيسل، الذي صار خلال الحرب مقدما ورئيس أركانه ونائبه، وقاد الشعبة في صيف سنة 1944 الحرج، لأن جيهلن غاب أسابيع كثيرة بسبب المرض، بينما أباد هجوم الجيش الأحمر مجموعة جيش الوسط، وحدثت محاولة العشرين من تموز/يوليو (محاولة اغتيال هتلر ـ المعرب)، التي نجت الشعبة من ذيولها بسلام، ملاحقات وتحقيقات قامت بها شرطة الدولة السرية (الغستابو)، مع أن والد فيسل، وهو كاهن بروتستانتي، كان في هذه الأثناء نزيل معسكر الاعتقال بوخنفالد، قبل أن يخرج منه بمعونة مندوب الجيش لدى الفوهرر، الرائد إنجل، الذي روى أن هتلر قال: من غير الجائز أبدا أن يسجن ألماني اسمه فيسل في معسكر اعتقال[107].

نقل المقدم فيسل كضابط في شعبة الأركان الثالثة إلى مجموعة جيش فايكسل، عندما تم تكوينها في كانون الثاني/يناير من سنة 1945. لكنه عاد في نيسان/أبريل سنة 1945 إلى شعبة الجيوش الأجنبية شرق في تسوسن، وصار بعد تسريح جيهلن في 10 نيسان/أبريل 1945 رئيسها المكلف بقيادتها. وقد كتب الكثير، بقلم جيهلن وآخرين، عن عمله كقائد للشعبة، فلا داعي هنا لمزيد من الكتابة عنه[108].

استسلم جيهلن ومعاونوه في شعبة الجيوش الاجنبية شرق يوم 21 أيار/مايو 1945 لقوات أميركا المسلحة، بعد أن جاؤوا، كل بمفرده، من أفران ألم الثلاثة العالية. لم يعرف الأميركيون أول الأمر ماذا يفعلون بجيهلن[109]. صحيح أن دليل ضباط الأركان العامة الألمان، الذي أصدره مكتب الاستخبارات المضادة التابع للقيادة العليا الحليفة في آذار/مارس 1945 في لندن، وكان بحوزة جميع الوحدات الحليفة، ذكر اسم جيهلن، لكنه ذكره

كعقيد، وخلا من أي معلومة حول موقعه الأخير، واكتفى بالقول إنه كان سنة 1939 ضابط أركان أول في الفرقة 213 مشاة. هكذا مر بعض الوقت قبل أن يتم إحضاره إلى معسكر التحقيق التابع للجيش السابع في أوجسبرج - بيرنكيلر. وقد وجه جيهلن، في الرابع من حزيران/يونيو سنة 1945، سؤالا خطيا إلى المارشال فون بوك، أقدم ضابط ألماني في المعسكر إن كان يستطيع الإدلاء باعترافات عن الجيش الروسي، فجاءه الجواب بالموافقة[110].

هكذا نشأت في معسكر التحقيق المدونات الأولى، التي وضعها جيهلن لمصلحة الجيش الأميركي، وهي:

15 حزيران/يونيو 1945: «أهداف روسيا السياسية العسكرية في أوروبا». «لمحة موجزة عن تدابير الروس لتمويه وحجب حشود وتحركات قواتهم». 21 حزيران/يونيو 1945: «ملاحظات حول الجيش الأحمر - القيادة والتكتيكات». (بالإنجليزية).

24 حزيران/يونيو 1945: «ملاحظات حول الجيش الأحمر - الاستخبارات والأمن «(بالإنجليزية).

26 حزيران/يونيو: «تنظيم وحدات الجيش الأحمر» (بالإنجليزية).

1 تموز/يوليو 1945: «علامات على استعدادات الروس لشن هجوم كبير» (بالإنجليزية).

عندئذ، أدرك ضباط الاستخبارات الأميركيون أي خبير وقع في أيديهم، ونقلوا جيهلن إلى فيسبادن، حيث وضعوه في مركز تحقيق القوات الأميركية على المسرح الأوروبي، وكتب تقريراً شاملاً هو «جهاز الاستخبارات شرق»، وضع له عنوانا بالإنجليزية هو: «جهاز الاستخبارات الألماني في حملة روسيا»[111].

وضع جيلهن الدراسة ذات الصفحات الـ 266 بمعونة مساعديه في شعبة الجيوش الأجنبية شرق كالمقدمين فيسل وهانس هاينريشس. وكان الأميركيون قد أحضروا هؤلاء إلى فيسبادن بناء على رغبة جيهلن، وكانوا قبل ذلك موزعين على معسكرات تحقيق وأسرى حرب مختلفة.

وقد كتب الأقسام المتعلقة بطريقة عمل ضباط استخبارات مجموعة الجيش والجيوش العقيد كونراد شتيبهاوس، ضابط الأركان السابق في مجموعات الجيش جنوب، الذي خصه بيتر بان في كتابه «الراية الخفية» (1952) بنص أدبي رائع. ونقحها الرائد لوتجندورف، ضابط شعبة الأركان الثالثة في الجيش الثامن، ووزير دفاع النمسا اللاحق.

قومت لجنة من الضباط الأميركيين والإنجليز والكنديين التقرير والوثائق التي غنمتها من شعبتي الجيوش الأجنبية شرق وغرب، وتوصلت إلى النتائج الآتية:

«بقي جيهلن حتى نهاية الحرب رئيس شعبة الجيوش الأجنبية شرق، وغدا خبيرا في الاستخبارات وتنظيم المعارك والشخصية الأبرز في هذا المجال... ويرجع الفارق الملحوظ بين فاعلية شعبتي الجيوش الأجنبية شرق وغرب إلى شخصيته البارزة، فضلا عن الدعم الذي تلقته شعبته، من اجل تلبية متطلبات الجيش الألماني في المجال الاستخباري»[112].

تم بتاريخ 1/ 3/ 1943 استبدال شعبة رئيس الجيوش الأجنبية غرب، العقيد ليس. وكان الإنجاز الرئيس الذي قامت شعبته به هو تحليل سلوك القائد الأعلى للجيوش الفرنسية جاملان أثناء الهجوم الألماني في الغرب (الحالة أصفر)، ومواقع مرابطة الجيوش الفرنسية.

قال بروفيسور جامعة هارفارد، إرنست ماي، في كتابه «انتصار غريب، احتلال هتلر لفرنسا» (نيويورك 2000). «حسب علمي، لم يسبق خلال تاريخ البشر أن مارس محلل جهاز استخباري مثل هذا التأثير على حدث كبير»[113]:

H. Dv. g. 14
M. Dv. Nr. 168
L. Dv. g. 14

Prüf-Nr. 9872

Geheim!

Schlüsselanleitung
zur
Schlüsselmaschine Enigma

Vom 13. 1. 40

Nachdruck mit eingeklebten Drahtplänen Nr. 1–8

Berlin 1940
Gedruckt in der Reichsdruckerei

43. جنود ألمان مع مرسلة شيفرة.

44. موديل (ب) لجهاز كاتب مرسل.

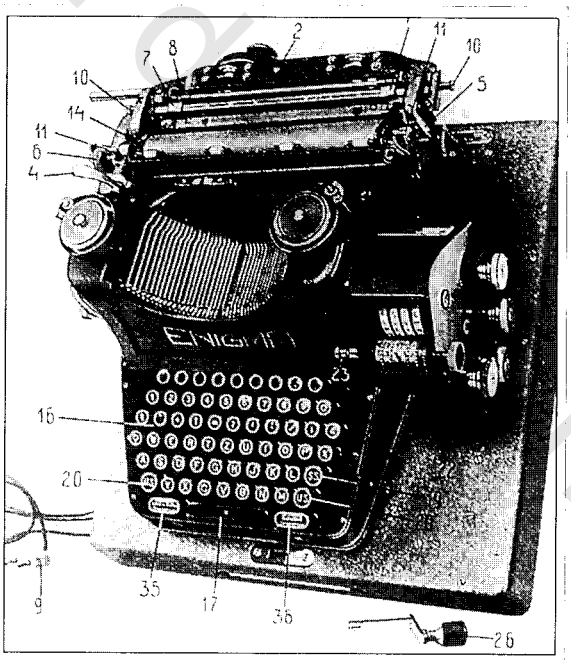

2 Wagen-Befestigungsschraube
3 Zeilenschalthebel
5 Papierauslöser
6 Lasche für den Walzenfreilauf (Stechwalze)
7 Randsteller
8 Fächeranschlag und Arretierknopf für Zeilenbegrenzung bei »Chiffrieren«, »Dechiffrieren« und »Klarschrift«
9 Stecker
10 Kordelschraube zum Herausnehmen des Wagens
11 Griffe für die Wagenauslösung
14 Hebel zum Herausnehmen der Walze
16 Tastenfeld
17 Weiterschalttaste
19 SS-Taste
20 US-Taste
22 Zählwerk
23 Glatter Knopf links vom Zählwerk
26 Kurbel
35 Taste »Umschaltung für Zahlen, Zeichen und Zwischenraum«
36 Taste »Umschaltung für Buchstaben«

45. في بلتشلي بارك في باكنغهامشاير في بريطانيا: مركز فك الشيفرة.

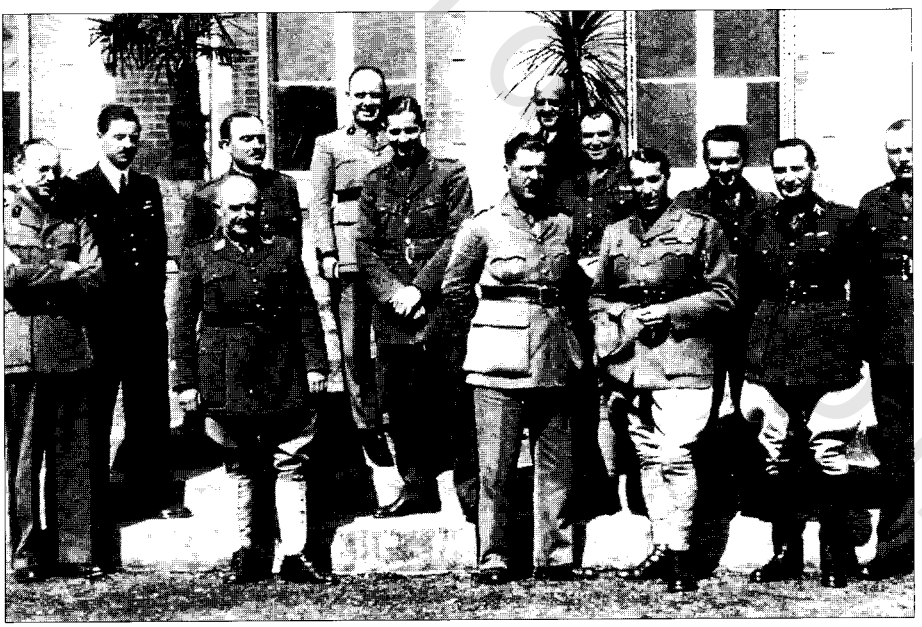

46. خبراء بولونيون وفرنسيون في فك الشيفرة في مركز بلتشلي بارك.

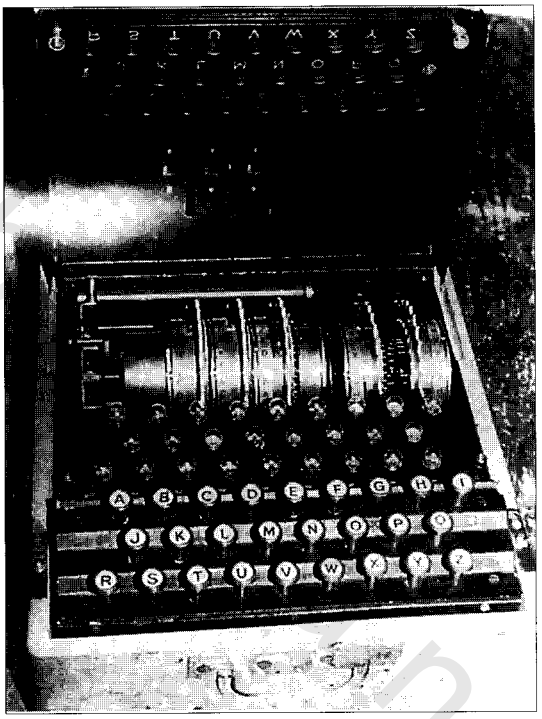

47. جهاز إرسال بولوني سنة 1939.

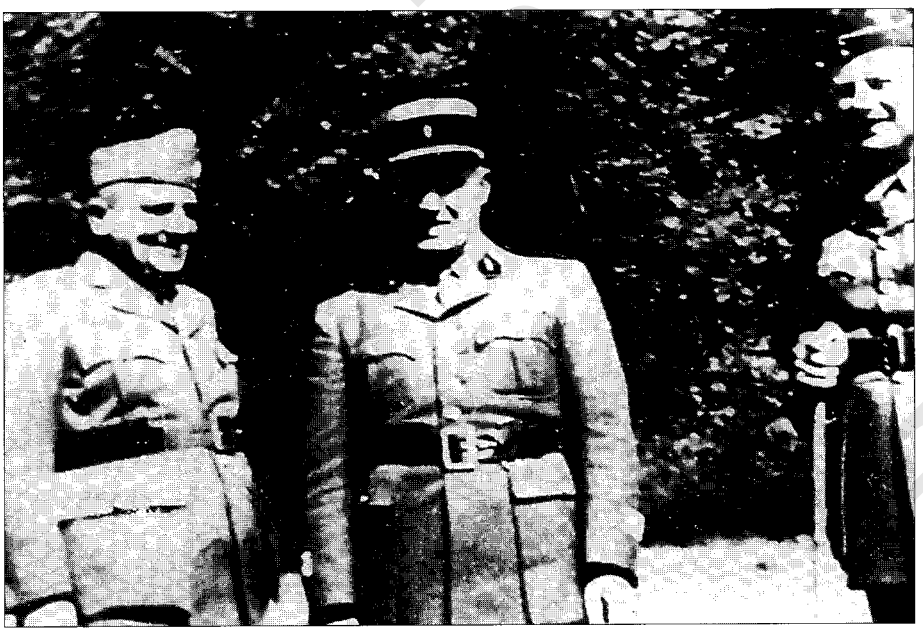

48. رئيس الاستخبارات البولونية (إلى اليسار) ومساعديه.

49. الكوماندر آلستر دنيستون مدرِّب في مركز بلتشلي بارك البريطاني.

50. تشرشل مع رئيس الأركان البريطاني هوارد آلن بروك وفيلد مارشال مونتغومري.

obeikandl.com

الوثيقة (مقطع)

جهاز الاستخبارات في الشرق

...

قادت شعبة الجيوش الأجنبية شرق في الأركان العامة للجيش عمل جهاز الاستخبارات في الشرق.

وكانت تابعة بصورة مباشرة لرئيس الأركان العامة للجيش، وعملت بتعاون وثيق مع شعبة العمليات. وقد انقسم الجزء الذي اختص منها بروسيا إلى مجموعات ثلاث:

المجموعة الأولى (مجموعة القيادة)، وكان عملها تقويم الوضع في إطار يومي، بالتعاون الوثيق مع شعبة العمليات. لذا، كان تنظيمها مماثلا لتنظيم القسم المختص بالشرق في شعبة العمليات، حيث كان يجب أن يتعاون كل مختص في إحدى الشعبتين مع مثيله في الأخرى.

المجموعة الثانية (روسيا)، وقد عالجت المسائل المتعلقة بوضع العدو العام والتي تتجاوز الإطار اليومي.

المجموعة الثالثة (مجموعة المترجمين) التي كان عليها الإفادة من مواد أجنبية اللغة (التحقيق مع الأسرى، غنائم تتكون من وثائق خطية، إذاعة، صحافة، أدب).

...

سنصف فيما يلي العمل التقويمي، الذي تنجزه المجموعات المختلفة، التابعة لشعبة الجيوش الأجنبية شرق.

تعالج المجموعة الأولى، في إطار التطور اليومي للوضع، مجمل وضع العدو، الموجود أمام الجبهة الشرقية الألمانية، في تلك القطاعات، التي كانت تقاتل فيها وحدات روسية ورومانية وبلغارية. أما مهمة

المجموعة فكانت الحصول على صورة يومية عن وضع العدو (يسمونها: خريطة وضع العدو)، وتفسير حال قواه باستخدام جميع مصادر المعلومات الاستخبارية، ووضع أسس لتقويم نواياه. يرأس قائد المجموعة، الذي ألحق به ضابط ارتباط تابع لقيادة الاستطلاع الاستخباري، عددا من الأقسام، يعالج كل واحد منها، بوجه عام، وضع العدو المواجه لكل مجموعة جيش ألمانية. بينما وجب على قسم آخر معالجة حركات المقاومة الوطنية في عمق روسيا، والتدابير الخاصة التي يجب أتخاذها لخداع العدو. وقد قاد كل قسم ضابط من الأركان العامة، ألحق به ضابطان مساعدان... أما المستندات والأخبار الواردة، فكان رئيس المجموعة يلقي نظرة عامة قصيرة عليها، ثم يرسلها إلى القسم، الذي تتعلق بمجموعة الجيش التابع له، فتضع الأقسام تقويمها، وتقدم بحضور ضابط الأركان الأول (القيادة) ورئيس المجموعة، تقريراً شفهياً يومياً حول صورة العدو إلى رئيس الشعبة («التقرير الصباحي» في الساعة العاشرة و«المسائي» في الساعة 22)، الذي كان يتلوهما بعد ذلك أمام رئيس الأركان العامة.

وكان عمل المجموعة الأولى يقوم على المستندات الآتية:

مستندات مجموعات الجيش: التي تقدم معطيات حول العمليات القتالية ورصد العدو بواسطة قواتها، ومعلومات عن «انتشار القوات» حصلت عليها من الأسرى، وعن تغير صورة القوى، ونتائج الاستطلاع الجوي والاستخباري، واعترافات الأسرى، والأوراق التي تم غنمها، ونتائج استطلاع قوات المدفعية.

وكانت مجموعة الجيش تقدم بلاغين هاتفيين يوميا عن أخبارها ومعلوماتها، يتم الصباحي منهما بين الساعة 8 و9، والمسائي بين الساعة 19 و20، على أن تنهي قوات الجبهة الأول نحو الساعة 6، والثاني نحو

الساعة 16. هذه المعلومات، كانت تبلغ من ضابط إلى آخر(وتسجل على الخريطة)، وتطبع في الوقت نفسه على الآلة الكاتبة بواسطة معاونة أركان تشارك في الاستماع عبر سماعة رأسية. إلى جانب المهام المذكورة سابقا، تضمن «البلاغ المسائي» بصفته القسم الثاني من التقرير، تقويما قصيرا لوضع العدو» ينجزه ضابط شعبة الأركان الثالثة في مجموعة الجيش، وتقويمات ضباط الاستخبارات في أركان الجيش.

أما الجيوش، التي كان عليها تقديم بلاغ صباحي ومسائي إلى مجموعة الجيش، التي هي تابعة لها، فكان من واجبها أن ترسل، فضلا عن ذلك، «بلاغا برقيا يوميا» مباشرة إلى قيادة الجيش العليا، شعبة الجيوش الأجنبية شرق، على أن يصل إليها حتى الساعة الثامنة من صباح كل يوم، يلخص أهم المعلومات عن العدو، التي تم الحصول عليها ذلك اليوم في قطاع الجيش. بينما كانت المعطيات الدقيقة ـ تحقيقات تفصيلية مع الأسرى، الوثائق التي غنمت... الخ، ترسل، عند اللزوم، بالطريق الرسمي الكتابي.

كانت مجموعة الجيش تبعث كل عشرة أيام بلاغا بالهاتف عن المدفعية، يتضمن صورة عن مدفعية العدو مأخوذة من نتائج استطلاع القوات، ويشمل النقاط الآتية: عدد بطاريات المدفعية المعادية التي تم استطلاعها أمام قطاع كل فيلق، موزعة على:

بطاريات خفيفة

بطاريات ثقيلة

قواذف صاروخية

مع زيادتها أو نقصانها خلال أيام البلاغ اليومي العشرة الأخيرة، ونقاط الثقل البارزة على قطاعات الفيلق المختلفة.

. . .

إلى جانب البلاغات المحددة التوقيت، كانت مجموعة الجيش تبلغ بصورة دائمة عن الأحداث المهمة، خاصة عند وقوع عمليات كبرى. كما كانت تتم محادثة هاتفية يومية واحدة على الأقل حول الوضع بين رئيس المجموعة ـ أو الأقسام وبين ضابط شعبة الأركان الثالثة في مجموعة الجيش.

نتائج الاستطلاع الجوي والعمل المشترك مع أجهزة السلاح الجوي

من أجل تنظيم العمل المشترك مع السلاح الجوي، والإبلاغ عن نتائج الاستطلاع الجوي وجمعها، ألحق بشعبة الجيوش الأجنبية شرق بوصفها هيئة ارتباط ضابط شعبة أركان ثالثة من سلاح الجو، أدمجت به شعبة مكلفة بإعداد صور جوية برسم الأركان. هنا، كانت تتجمع نتائج الاستطلاع، والبلاغات والتوجيهات حول تصور سلاح الجو، التي كانت تأتي من ضابط شعبة الأركان الثالثة الجوي في مجموعات الجيش، وضباط استخبارات الأساطيل الجوية في الشرق، ومن شعبة «الاسلحة الجوية الأجنبية شرق» لدى قيادة سلاح الجو العليا.

كان ضابط شعبة الأركان الثالثة يمد شعبة الجيوش الأجنبية شرق، استنادا إلى البلاغات التي تردها، بمستندات حول:

الاستطلاع الجوي العملياتي (تحركات القوات، عددها، الدبابات، الجسور، المدفعية). نشاط طياري العدو، الاستطلاع الجوي المعادي، حشد سلاح الجو العدو وقوته، عدد المطارات، بناؤها، نقاط تمركز وثقل مدفعية العدو المضادة للطائرات.

. . .

نتيجة للتمويه البارع للتحركات الروسية، كانت صور الاستطلاع

الجوي اليومي على الجبهات الثابتة تقدم إشارات غير كافية غالباً حول نوايا العدو، وعن الدرجة التي وصلت إليها تحضيراته، ونقاط ثقل قوته... الخ. بالمقابل، كان جمع عمليات الرصد يسمح على المدى الطويل باستخلاص استنتاجات قيمة معظم الأحيان. لهذا، كان ضابط الاستخبارات الجوي يقوم بجمع التحركات والدبابات، التي تم استطلاعها خلال قرابة أسبوع، في خريطة، تشير بأسهم إلى التحركات، وبالعلامة التكتيكية إلى الدبابات، فكانت كثافة الأسهم وكثرة العلامات تعكس بيانيا ما تمثله من علاقات عددية. هذا العرض كان يقدم دوماً إشارات واضحة إلى نقاط الثقل والحشد، عندما يكون هناك استعدادات هجومية معادية. أما نتائج استطلاع المدفعية المعادية من الجو، فكانت تجمع كل عشرة أيام مرة، وتحمّل على خريطة خاصة، ليمكن مقارنتها بنتائج الاستطلاع المدفعي، الذي تبلغ عنه مجموعة الجيش مرة كل عشرة أيام.

وقد تم، في ما يتعلق بحجم الطلعات المعادية، وكثافة وعمق الاستطلاع الجوي المعادي، إقرار خريطة كانت تستكمل بصورة يومية، تقدم إشارات إلى وضع نقاط الثقل واتجاهات العمليات.

كانت شعبة الأسلحة الجوية الأجنبية شرق، التابعة لقيادة سلاح الجو العليا، تصدر كل اربعة عشر يوما بظرف سنة خريطة تبين حشد قوات سلاح الجو الروسي، تتضمن عرضا للوحدات الطائرة والتنظيم الأرضي (هو من حيث الجوهر نتيجة استطلاع سلاح الجو). هذه الخريطة كانت تقدم في الغالب صورة تامة عن الحشد الجوي المعادي، لأن لاسلكي الطائرات المعادية كان يعمل حتى في أوقات الهدوء، بسبب كبر مساحات روسيا.

كان ضابط شعبة الأركان الثالثة في سلاح الجو يبلغ رئيس الشعبة،

وضابط الأركان الأول، وقادة المجموعات والأقسام في المجموعة الاولى، بالتغيرات التي تحدث يوميا في ما يتعلق بحشد وحدات الطيارين المعادية، التي كانت تجمع كل أربعة عشر يوما على خريطة خاصة، تبرز ما كان يقع من تغيرات كبيرة، وانتقالات في تشكل نقاط الثقل الخاصة بسلاح الجو، وتعطى بهذا الطريقة إشارات مفيدة عند تقويم الوضع الأرضي.

إلى جانب تقويم المستندات، التي كان يقدمها ضابط شعبة الأركان الثالثة في سلاح الجو، كان هناك عمل مشترك وثيق جداً مع شعبة «الأسلحة الجوية الأجنبية شرق» لدى قيادة سلاح الجو العليا، يمتد ليشمل تقويم نوايا العدو بصورة خاصة. لهذا، كانت تجري محادثة هاتفية يومية بين قائد المجموعة الأولى، وفي الحالات المهمة بين رئيس الشعبة أو ضابط الأركان الأول، ورئيس شعبة «أسلحة الجو الأجنبية شرق»، يتم فيها تبادل الأفكار حول صورة العدو. بما أن سلاح الجو الروسي استخدم في كتلته الأكبر لدعم القوات الأرضية، نشأ تعاون مشترك وثيق بين الوضعين الأرضي والجوي. وبالنظر إلى أنه ألحق بكل قيادة جبهة جيش جوي روسي، كان مجال استخدام هذا الجيش يشير بوضوح إلى قطاع قيادة الجبهة التي يتبع لها. كما قدمت نقاط ثقل سلاح الجو، التي أمكن معرفتها بوضوح تام من خلال إشغال المطارات وبنائها، دليلا لا لبس فيه بالنسبة إلى نقاط الثقل الأرضية.

. . .

الاستطلاع الاستخباري

كان الإبلاغ عن نتائج الاستطلاع الاستخباري يتم بواسطة ضابط الارتباط، الملحق بالمجموعة الأولى من ادارة الاستطلاع الاستخباري لدى قيادة الجيش العليا. وكان هذا الضابط يتلقى حتى الساعة 18 من كل يوم

إعلاما أوليا شفهيا حول نتائج الاستطلاع في اليوم المعني، يتلوه أمام قائد المجموعة وقادة الأقسام باعتباره أرضية التقرير الذي ستتم قراءته أمام رئيس الشعبة. إلى هذا، كانت إدارة الاستطلاع الاستخباري تلخص نتائج الاستطلاع اليومية كتابيا. هذا «الوضع الاستطلاعي الاستخباري كانت تبلغ به شعبة الجيوش الأجنبية شرق قبل الساعة 22 من كل يوم، ليشكل أرضية تقويم أوسع يتم خلال الليل، وتوجها تتقيد به شعبة العمليات. وقد قامت مجموعات الجيش بدورها بالإبلاغ عن أكثر نتائج الاستطلاع الاستخباري أهمية من خلال بلاغيها الصباحي والمسائي، فإذا ما ظهرت هنا فروق مع بلاغات إدارة الاستطلاع الاستخباري، أمكن توضيحها، أو اتخذ رئيس الشعبة في أسوأ الحالات قرارا بشأن إعادة تقويمها.

بلاغات العملاء

كانت البلاغات الواردة من استطلاع الجبهة أو من العملاء إلى مكتب أمن الرايش الرئيس، تذهب أول الأمر إلى المجموعة الثانية، المكلفة عموما بمعالجتها. كانت بلاغات العملاء تلك تنصب على وضع العدو اليومي. وكانت المجموعة الثانية ترسلها إلى رئيس الشعبة، وقائد المجموعة الأولى، وأقسام المجموعة الأولى في شكل ملخص يومي.

نشاط العملاء المعادين

شكلت نتائج استطلاع نشاط عملاء العدو ومهامه أحد أهم مستندات تقويم النوايا العملياتية المعادية بوجه الإجمال. أما المعلومات حول نشاط العملاء المعادين فكان يتم الحصول عليها من خلال الاستطلاع الاستخباري واستطلاع شعبة الجبهة الثالثة، في حين كانت النقاط التالية على جانب كبيبر من الأهمية، عند تقويم نوايا العدو: وقت النشاط ومكانه، الجهة التي كلفت به، مهمة العميل. وكانت إدارة الاستطلاع الاستخباري

واستطلاع شعبة الجبهة الثالثة تقوم بالإبلاغ بصورة مستمرة عن هذه النقاط. فضلا عن هذا، كان يصدر كل عشرة أيام عن استطلاع شعبة الجبهة الثالثة بلاغ تلخيصي حول نشاط عملاء العدو. وكان تقويم البلاغات يتم من قبل قسم ضابط الأركان الثاني (بادن)، الذي لديه خريطة يتضح منها توقيت مكان ونشاط من اعطي التكليف ونشاطه، بينما كانت المعطيات حول مهمة العملاء تتضمن شرحا لها. أما مكان العملاء، الذين يتم توجيههم من قبل الجبهات المختلفة، فكان يعطي، خاصة قبل وقوع عمليات كبيرة، إشارات واضحة في الغالب إلى الاتجاهات الرئيسة منها. في حين كانت نقاط ثقل الجبهة بمجموعها تظهر من نقاط الثقل الواضحة لنشاط العملاء، وأمكنة استخدام الذين توجههم منهم مباشرة أركان الجيش الأحمر العامة.

الصحافة المعادية، الإذاعة والجهاز الديبلوماسي البرقي

كان أحد العاملين كضابط ركن أول يقوم بتقويم المستندات السياسية / العسكرية الصادرة عن جهاز الديبلوماسية البرقي، قبل أن يلخص أهم نتائجها كتابيا ويرسل ملخصا يوميا عنها إلى رئيس المجموعة الأولى.

وكانت إدارة الاستطلاع الاستخباري تقوم بالاستماع المنهجي للإذاعات المعادية والمحايدة، وتعد يوميا ملخصا خطيا بنتائجها، ترسله إلى رئيس شعبة الجيوش الأجنبية شرق، حيث كانت الأخبار الروسية تحتل أهمية خاصة لدى توضيح صورة العدو، خاصة عند نجاحه في تحقيق انتصارات كبيرة. عندئذ، كان القادة المشاركون في القتال يذكرون بأسمائهم الصريحة، وهو ما كان يؤكد ـ أو يكمل ـ المعلومات الآتية من مصادر أخرى حول انتشار القوات المعادية.

. . .

كما سبق أن ذكرنا، كان هناك عمل مشترك وثيق بين معالجي

المجموعة الأولى المتخصصين وشعبة العمليات. وكان يتم تبادل مستمر لنتائج الاستطلاع حول العدو والنوايا الصديقة بين رؤساء الأقسام في الشعبتين، لمواءمة نتائج استطلاع العدو مع التدابير الخاصة (الصديقة). وكان ضابط الأركان الأول في شعبة الجيوش الأجنبية شرق يشارك في المحاضرات الصباحية لشعبة العمليات.

...

كانت العمليات القتالية المعادية على الجبهة، والتغيرات في الوحدات المعادية تلخص خطيا كل يوم في «تقرير وضع العدو شرق»، الذي كان يضع مسودته رؤساء الأقسام ويطبع كل ليلة بعد مراجعته من قبل مديرها، ويوزع على مجموعات الجيوش وعلى الجيوش في الشرق، وعلى إدرات الخدمة في شعبة العمليات وقيادة الجيش وقيادة القوات المسلحة العليا وقيادة البحرية الحربية العليا، ذات العلاقة بمعالجة أوضاع العدو.

...

لامتلاك نظرة عامة في كل وقت على عدد الوحدات المعادية، المقابلة لمجموعات الجيوش الألمانية، وعلى قوتها القتالية، تم تسجيل الوقائع يوميا على قصاصات منفصلة تقدمها أقسام المجموعة الأولى إلى السجلات. هنا، كانت القدرة القتالية تحدد في ضوء اعترافات الأسرى، والوثائق التي تغنم، والاستطلاع اللاسلكي، وكانت قدرة وحدات الرماة تتحدد حسب المستندات المتعلقة بقوتها العددية، والوحدات المدرعة على أساس قوة دباباتها. وكانت السجلات تصدر يوميا تقريراً إجماليا يتضمن عدد وحدات العدو المقابلة لمجموعات الجيوش الألمانية، مقسمة إلى وحدات في الجبهة، واحتياطي قريب منها، واحتياطي منتشر في العمق،

مع بيان بقدراتها القتالية. إلى هذا، كانت تعد يوميا مقارنة بين الوحدات الألمانية والمعادية.

...

برز قسم ضابط الأركان الثاني من المجموعة الأولى من الشعبة المتخصصة بحرب العصابات الروسية وراء الجبهة الألمانية. مع تراجع الجبهة إلى الأراضي الألمانية، تم تصغير القسم، الذي أعطي مهمة مزدوجة هي: معالجة حركات المقاومة الوطنية وراء الأعداء الروس، والقيام بتدابير لخداع العدو وتضليله. وقد عالج القسم، في إطار حركات المقاومة، الأنصار الروس «الخضر»، ومجموعات المقاومة البولونية، وحركات الأنصار الأوكرانية، وحركات القرم والقوقاز والشرق الأقصى والبلقان... الخ. إن قيمة هذه الحركات وتأثيرها يجب أن يقوما بطريقة واقعية. وعلى كل حال، فإنها عديمة الأهمية الآن، ولن تكتسب أي أهمية ما لم يحدث تبدل ملائم في الوضع الدولي ووضع روسيا الداخلي.

خلال فترة عمل الأنصار وراء الجبهة الألمانية، كان يتم إصدار تقرير يومي عن «حالة العصابات»، استنادا إلى البلاغات الواردة من مجموعات الجيوش، الاستطلاع اللاسلكي، استطلاع الجبهة (الشعبة الثالثة = شرطة الجبهة السرية). هذا التقرير كان يستكمل بخريطة شهرية تبين «نقاط ثقل العصابات»، ومناطق نشاطها. إلى هذا، كان التقويم يمتد ليشمل الإحاطة الموثقة بالعصابات الجديدة، وبظروف قيادتها، وطريقة قتالها وتنظيمها وعملها، وكذلك بتطور مكافحتها.

كان جزء من خداع العدو يتم عبر برقيات العملاء، الذين يقدمهم مكتب أمن الرايش الرئيس، وجزء آخر بواسطة تدابير خاصة تفضي إلى قيام إطار واقعي يمكن أن يستخدم لتحقيق الخداع اللاسلكي، وبواسطة

الاستطلاع الجوي، والعملاء، الذين ينشرون الشائعات ويقومون بعمليات انتشار كاذبة... الخ. أما تنفيذ تدابير الخداع الأكبر، التي تستغرق فترات زمنية أطول وتحدث ضمن أطر أكبر، فقد رفضت الشعبة دوماً القيام بها خلال السنوات الأخيرة، بسبب وضعها العملياتي الخاص. لهذا السبب، لم يتم كسب خبرات جديدة في هذا المضمار.

تميز عمل المجموعة الثانية (مجمل روسيا والبلطيق) عن عمل المجموعة الأولى (مجموعة القيادة)، المكلفة بمعالجة إطار الوضع اليومي والمؤهلة للعمل بسرعة كبيرة وفق منهجية ثابتة، بقدرتها على تقديم عمل يتسم بعلمية أكبر. أما تحديد كيفية تعامل المعالج مع المهام والمشكلات التي يكلف بها، فكان يترك له إلى حد بعيد، ويتكيف مع نمط المستندات المتوفرة بين يديه، وتلك التي يجب عليه الحصول عليها. وإن كان يطلب منه هنا أيضاً الرد خلال ساعتين على أي سؤال يتعلق بالمعارف التي يجمعها.

ترأس قائد المجموعة الثانية أقساما كثيرة، تعالج بطرق مختلفة مجالات مهامها المختلفة، فكان للقسم 2 أ مهام ثلاث، إلى جانب المهام الخاصة التي يكلف بها من حالة لأخرى، هي:

النظر في بلاغات استطلاع الجبهة، والبلاغات السياسية والأخبار الصحافية واعترافات الأسرى من أجل الإفادة منها في المجموعة الاولى، وتقديم تقويم تلخيصي لها يمتد على فترات زمنية أطول.

المتابعة الدائمة لقدرات الروس البشرية، ولخسائرهم وللتعويض عنها.

المتابعة الدائمة للوضع الروسي في الشرق الأقصى ومنطقة ما وراء البايكال.

حول (أ) تم تزويد جميع البلاغات، المتعلقة بالوضع اليومي أو بأخبار مهمة، بتعليق في معظم الأحيان، وصدرت في ملخص يومي غير مطبوع يرسل إلى جميع الإدارات المهتمة في الشعبة، مع تزويد كل بلاغ بخبر جار. وكان رئيس الشعبة يقرر في التقرير المسائي أي بلاغات يجب إرسالها برقيا إلى مجموعات الجيوش. إلى هذا، تم تسجيل البلاغات على بطاقات مختلفة، تحفظها فترات زمنية تتفق والهدف من تقويمها، تستخدم عند إجراء التقويم الشهري الكبير لنوايا العدو العملياتية.

حول ب) كان حساب قدرات الروس البشرية ومتابعة خسائرهم وتعويضها يتم وفق الأسس ذاتها تقريبا، التي تقوم عليها الحسابات والتقديرات الإحصائية، مع إقصاء مصادر الخطأ قدر المستطاع. أما نقطة انطلاق الحسابات، فكانت إحصاء 1939، الذي أكدت نتائجه سلسلة مستندات غنمها الألمان في بداية حملة روسيا. وكان من الضروري مراعاة حركة السكان حتى سنة 1944، الطبيعية منها وتلك التي ترتبت على التغيرات السياسية، إلى جانب خسائر الحرب التي لا تعوض، وكذلك تناقص وتزايد القدرات الدفاعية من خلال ضياع واسترداد المناطق المحتلة في الشرق. وقد فصلت عن هذا القدرات الدفاعية التي يمكن أن يجعلها الروس صالحة للاستخدام في بولونيا وبلدان البلقان.

حول ث) تمت متابعة الوضع العسكري الروسي في الشرق الأقصى لغرضين: جمع وتقويم مواد تبين انتشار القوات الروسية في الشرق الأقصى وما وراء البايكال، ومستندات عن الوضع السياسي / العسكري، وخاصة منه علاقات روسيا باليابان والصين. إلا أن الأخبار شحت هنا وتناقصت صدقيتها أكثر فأكثر منذ أيلول/سبتمبر 1944، فصار من الصعب اعتبار المستندات التي تم الحصول عليها أكيدة، لا سيما وأنها كانت تستند في قسمها الأكبر إلى مصادر ديبلوماسية.

كان على القسم 2 ب معالجة جميع العناصر الجوهرية بالنسبة لتقويم القوات الروسية المسلحة أو للوضع العسكري، لكنها لا تتعلق بتراتبها وتنظيمها وتدريبها وقيادتها. وكان من صميم مهام هذا القسم معرفة مزاج الجيش والشعب، ووضع تغذيتهما، وبعض القضايا السياسية الخاصة، وقضايا التربية، والخدمة الداخلية، ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية. . . الخ .، وكانت النتائج تجمع عادة في «تقرير شهري» مخصص للقيادة. أما مصادر الحكم على وضع مزاج وتغذية الجيش والشعب الروسيين فكانت بظرف سنة كمية كبيرة تم غنمها من البريد الميداني، وأقوال الأسرى، وتقويمات صحافية تم التعامل معها بحذر كبير.

كان على القسم 2 ث إدارة القيود والسجلات، التي ملأت نحو 30000 بطاقة مكنتها من إلقاء نظرة عامة في أي وقت على الأفواج والفرق والوحدات الروسية، ودوائر قيادتها، وعلى مجموعات الجيوش، والملفات الشخصية بدءا من قادة الفرق فما فوق، وأرقام البريد الميداني، ووحدات بلدان البلقان. وكان على القسم إجراء «حساب قوى»، أي قائمة عددية دقيقة بالوحدات الروسية المواجهة هذا اليوم للجبهة الألمانية، مع حسابات تتعلق بقيمتها القتالية. كما كانت القيمة القتالية لكل وحدة تحدد يوميا من قبل القسم المعني، التابع للمجموعة الأولى، وتبلغ إلى السجلات، اعتمادا على بلاغات القوات. فضلا عن ذلك، كان على السجلات إجراء «مقارنة يومية عددية للقوى» الألمانية والروسية في قطاعات مجموعات الجيوش. احتلت السجلات أهمية خاصة، بوصفها أداة ملائمة للإحصاء وتاليا لـ«ذاكرة» الشعبة، لذلك كان ت ملاكها الوظيفي ينتقى بعناية خاصة. كان إجراء حسابات الإحصاءات العسكرية، التي تحتاج القيادة إليها، مهمة القسم 2 ث، ينجزها عند الضرورة بالتعاون مع القسم 2 أ، حين يتعلق الأمر بالقدرات البشرية، ومع القسم 2 د، متى لعب عدد الدبابات دوراً فيها. وقد استخدمت الرسوم

البيانية على نطاق واسع في جميع هذه الأعمال. إلى ذلك، كان بين مهام القسم 2 ث التعاون مع العاملين في أقسام التدريب لجمع ومعالجة معلومات تتعلق بتنظيم الوحدات الروسية، وتراتبات قواتها، وتسليحها، تجمع نتائجها ضمن إصدار دوري يأخذ شكل مطبوعة تتضمن «لمحة عامة عن وحدات القوات المسلحة السوفياتية الروسية»، و«لمحة عامة حول دوائر قيادة القوات السوفياتية الروسية، و«لمحة عامة حول قادة السوفيات الروس السامين». عالج القسم 2 د قدرات روسيا التسليحية الملموسة، التي احتلت صناعة الدبابات مكانة خاصة فيها، لأسباب عسكرية مفهومة. كان رئيس القسم هو في الوقت نفسه معالج الشؤون الروسية لدى مكتب الاقتصاد الميداني، مما وحد عمل المكتب والجيوش الأجنبية شرق، ومكنهما من استخدام أجهزة القسم الآخر. تمت معالجة قضية الدبابات من جانبين: حساب عدد الدبابات في الوحدات المدرعة، بناء على بلاغات القدرة القتالية التي تصدرها القوات، وحساب إنتاجها، وحجم خسائرها. وكان الفارق بين الحسابين يبين حدود الخطأ المحتملة. وقد أمكن تقديم نتائج أكثر دقة في الأشهر الأخيرة، انطلاقا من تقويم عدد مصانع إنتاج الدبابات في نهاية الحرب.

عالج القسم 2 وتكتيك الجيش الروسي وتدريبه، وكان مزوداً بضابط أركان على درجة رفيعة من التأهيل، من مهامه إيصال ما يعلمه عن طرق قتال الروس إلى القوات الألمانية بالسرعة الممكنة. وقد حدث هذا أول الأمر عبر نشر «تقويمات أو تجارب قصيرة» ضمن «الأخبار المتفرقة لجهاز الاستخبارات شرق». ثم صدرت فيما بعد دراسات تفصيلية حول القضايا المهمة، ظهرت ككتابات منفصلة. وكان المعالج في هذا القسم على علاقة مع شعبة التدريب، التي كان عليها استخلاص الاستنتاجات الضرورية منها بالنسبة إلى الجانب الألماني. لم يكن منهج عمل القسم 2 و محدداً بصورة مسبقة تفصيلية، لأنه كان يعمل بطريقة مدرسية صرفة.

. . .

كانت مهمة المجموعة الثالثة (مجموعة المترجمين) تنحصر في جعل المواد أجنبية اللغة قابلة للتقويم، والقيام بدور استشاري في القضايا المتعلقة بالطبيعة الروسية، وإعداد الدعاية القتالية ضد الروس داخل الشعبة، وكتابة المواد باللغات الأجنبية. كانت معرفة الغنائم الخطية أجنبية اللغة تتطلب نوعا من الغربلة والتقويم الأولي، جعل من الضروري شغل الأقسام بقوى مؤهلة عسكريا. . . وكان القسم قد تأسس بسبب نواقص ظهرت في الدعاية الحربية الألمانية، وكلف بتقديم مقترحات تتعلق باستخدام المواد الواردة فيها. وإذا كانت أفكار كثيرة جيدة قد اصطدمت برفض قاطع من الجهة الأعلى، فإن بعض الاقتراحات لقيت مع ذلك قبولا واسعا لدى ألمان مسؤولين في الإدارات المختصة عن الدعاية الحربية. . . .

أشرفت المجموعة 3 على معسكر التحقيق، الذي كفل ظروف حياة ملائمة جداً للاسرى، جعلت بالإمكان الإفادة منهم. وكان يرأس المعسكر قائد ألماني وآخر روسي.

اقتصرت منطقة عمل المجموعة الرابعة على البلاد الاسكندينافية، وخاصة منها السويد وفنلندا، بعد الهدنة الروسية الفنلندية. هذه المجموعة عملت بأسلوب سلمي صرف حتى في أحلك الظروف، لأن العمل الاستخباري ضد السويد كان ممنوعا بحد ذاته، والمواد الآتية من المصادر المختلفة تجمع بطريقة متعبة. من هنا، كان من الصعب جداً اعتبار هذا العمل عالي القيمة أو كاملا، شأنه في ذلك شأن المواد التي تم جمعها في الفترة الأخيرة عن فنلندا.

ضمت المجموعة 5 مكتب الخرائط والصور والمصورات الضوئية. وكان الأول يضم 18 موظفا خبيرا بالخرائط، ينجزون في الليل الأعمال الفنية التمهيدية لطباعة خريطة الوضع، التي تصدر كل صباح.

obeikandl.com

ملخص

تحولات الاستخبارات السرية
في القرن العشرين

يدور هذا الكتاب بالدرجة الأولى حول الاستخبارات السرية في الحرب العالمية الثانية، وحول وسائلها ومناهجها، ونجاحاتها وإخفاقاتها، التي تركت أثرها في الأحداث الحربية. لكنه كانت ولا تزال هناك أجهزة استخبارات تعمل في السلام أيضاً، كما يعرف كل إنسان، وبذلك تبدأ بالنسبة إلى كثير من معاصرينا مشكلة الاستخبارات بالمطلق، ممن يسألون أنفسهم عن الغاية من وجود الاستخبارات، إن ما دامت كلمات وشعارات كالتعايش والتفاهم والوئام متداولة دوليا، وكان القادة السياسيون لا يفتأون يؤكدون نواياهم السلمية بعضهم لبعض. هنا، يكون السؤال محقا إلى أبعد حد، وتغدو المطالبة بضرورة إلغاء الاستخبارات السرية في أزمنة السلم مفهومة، ما دامت ستزول بزوالها أسباب كثيرة للاستياء المتبادل.

في هذه المناسبة، من غير الجائز أن نتجاهل واقعة أنه لا يوجد فقط جانب يومي وظاهري للسياسة، بل لها جانب ليلي وخفي أيضاً، فالسياسة لا تقتصر، والحق يقال، على ما يقال علنا من خطب مبهجة وتأكيدات متبادلة للإرادة الحسنة: تعلمنا التجارب التاريخية، التي راكمناها بوفرة في هذا القرن، أن من الحكمة، والضروري جدا، معاودة طرح سؤال متشكك حول

obeikandl.com

ما يكمن وراء الكلمات، وما هي خطط ونوايا الجانب الآخر الحقيقية على المدى البعيد؟. وماذا كانت تنوي هذه أو تلك من الحكومات، وما التدابير التي يجب على حكومتنا اتخاذها لحماية أمن دولتنا وهيئتنا المجتمعية؟. السياسة الخارجية هي دوماً معادلة من مجهول واحد على الأقل، وهو يختفي في جانبها الليلي، ويبقى في الظلام، فلا يقدر المرء أن يعرف المفاجآت الخبيثة، التي يمكن أن تنطلق فجأة من هذا الظلام، ولا بد أن يبقى حذراً ومستعداً.

تتحمل قيادة الدولة، أي الحكومة، المسؤولية عن هذا الوجه الليلي من السياسة أيضاً. لذلك، لا يستطيع أي رئيس، أو مستشار، أو وزير الشعور بالسعادة لوجود هذا الجانب المظلم والمجهول الكبير، ولا يقدر أن يقول ببساطة لنفسه ولشعبه: ما أجهله لا يثير قلقي. لا توجد سياسة خارجية مؤثرة ليست اليقظة الدائمة قانونها الأعلى، وليس هناك سياسة داخلية لا تهدف إلى حماية دستورها الشرعي من أعدائها. ومن غير الجائز أن يكون لخداع الآخرين والذات مكان في هذين الحقلين. من هنا، ليس بمستطاع أي حكومة أن تستغني حتى خلال السلام عن إدخال خطط ومقاصد الجانب الآخر ضمن خبرتها، وكذلك ما تريده وتستطيعه هي ذاتها، كما قال العماد فون سيكت بتبسيط لا يجارى، وهو صحيح اليوم بالمعنى السياسي والعسكري، وبالمعنى الاقتصادي أيضاً. وهكذا، سيكون من واجب كل حكومة الحصول على معلومات موثوقة حول ما يريده الآخرون ويقدرون عليه، لتكون مستعدة له عند تغير الأحوال. ولا يقصِّر في هذا إلا الساسة الذين يفتقرون إلى الشعور بالمسؤولية.

ليست وكالات الاستخبارات السرية، المسماة أجهزة الاستخبارات، غير أداة تضيء الجانب المظلم من التواصل السياسي الدولي، تستخدم

لتقصي والوسائل والمشاريع الحقيقية للحكومات الأجنبية ومعرفة نواياها، وتكشف الخلفيات والوقائع الخفية وتبلغ حكومتها عنها. أما الأخبار، التي تجمعها بطريقتها الخاصة، فلها على الداوم طابع هجومي ودفاعي في آن معا، هو تحديدا ضبط التكتيك السياسي الخاص بما يتفق معها، وحماية الدولة والهيئة المجتمعية من الضرر، وتجنيبها المفاجآت. بما أن الاستخبارات تنشغل بالجانب المظلم من السياسة، فإنها تجد نفسها مجبرة على العمل في الظلام، وتتقصى سرا ما يبقيه الجانب الآخر سريا، وتموه نفسها قدر الإمكان. طبيعي أن الاستخبارات ستنهمك بظرف سنة على الدوام في أعمال مكافحة، تعيق وصول عملاء أجانب إلى أسرار الدولة، وخاصة منها الأسرار العسكرية والتقنية. من المعلوم أن هذه المهمة هي التي أعطت مجموعة العمل مكافحة / الخارج في القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية اسمها، رغم أن واحدة فقط من شعبها، هي الثالثة، كانت مكلفة بإنجازها. بينما كانت شعبتها الأولى متخصصة «بالخدمات السرية»، أي بالجاسوسية، والثانية مكلفة بأعمال التخريب والتآمر. لم يعد معمولا اليوم بهذا التنظيم في استخبارات جمهورية ألمانيا الاتحادية، التي تقتصر وظائفها على العمل الاستخباري وحماية الدستور والقوات المسلحة، وتحمل طابعا دفاعيا صرفا.

مشكلة الاستخبارات

من الواضح أن «الرأس»، أي مركز القيادة والتفكير، الذي تنطلق منه الأفعال وتوجه العمليات، هو الشيء الرئيس في أي جهاز استخبارات. وقد كان له على الدوام وظيفتان ينجزهما في وقت واحد، من الضروري إمعان النظر فيهما جيدا، هما: التلقي وإعادة الصياغة، اللذان يشملان: كسب الأخبار أو الحصول عليها، ثم جمعها وأخيراً تقويمها، ويتوج بتحليل مستمر للأوضاع، هو منتج العمل النهائي والشيء الرئيس فيه: هنا، يتم فرز القش،

الذي يكثر في عمل اجهزة الاستخبارات، عن القمح، وتتم بلورة الأمور الرئيسة، فيمكن للمنتج النهائي من هذه اللحظة فصاعدا أن يخدم الحكومة بصفته معلومة صحيحة، هي أرضية أمينة يقوم عليها تكتيك سياساتها الخارجية وقراراتها السياسية العملياتية. ليس من عمل أجهزة الاستخبارات ـ مفهومة بطريقة صحيحة ـ ممارسة أو اكتساب تأثير مباشر في هذين المجالين، وإن كان يحق لها -في أحسن الأحوال، الإقناع وتقديم التوصيات. وللعلم، فإن الجهاز الاستخباري لا يحتاج إلى «رأس» و«رئيس» فقط، بل يحتاج كذلك إلى «أيد وأرجل». إنه يحتاج إلى عملاء و« شعب عادي»، ويكون عملاؤه ووكلاؤه، الذين يوجد أنواع مختلفة منهم، يقومون بالحصول على المعلومات وإبلاغ الجهاز بها. أخيراً يوجد «الشعب العادي»، «الثقاة من الرجال»، «الجديرون بالثقة»، الذين يبحثون دوماً عن معلومات لا يكفون عن تقصيها، فلا يستطيع أي جهاز استخباري الاستغناء تماماً عنهم، حتى في العصر التكنولوجي، الذي يقدم إمكانات لجمع المعلومات لا تخطر ببال. وعلى كل حال، فإن مهام رجال الثقة هؤلاء ليست اليوم ما كانته بالأمس: فهم يستخدمون في أجهزة استخبارية تدار بعقلانية وبطرق اقتصادية رشيدة، ويؤدون مهامَّ محددة وينجزون وظائف رقابية معينة.

ثمة، كما نعرف، أسباب نفسية قوية تكمن وراء هذا كله: فالعميل ورجل الثقة يمتلكان علاقة إشكالية بالحقيقة، ترجع إلى نشاطهما، الذي يتم في الظلمة أو العتمة نصف المظلمة. بينما لا تكون علاقتهما بالخبرة، التي يحصلان عليها، في أحسن حال دوما، حتى عندما يتم إعدادهما في مدارس ودورات تأهيلية خاصة. رغم هذا، تدل التجربة على وجود ضرب من تضامن بين قادة العملاء المهرة وهذا «الشعب العادي»، يتم فيه التمييز بين «مجرب» و«موثوق» و«غير موثوق»، رغم أنه لا يوجد جهاز استخباري حصين ضد وجود عاملين منفلتين فيه، يعملون لجهتين ويقبضون منهما.

يجند الطرف الآخر عددا غير قليل من هؤلاء، عندما يقبض عليهم. ويروي تاريخ أجهزة الاستخبارات قصصا وحكايات مغامرة قاموا بها في السلم والحرب، تفوق عجائبيتها من حين لآخر أي قصة «خيال علمي». يوجد عادة عميل ورجل ثقة مقابل كل مخبر يخدم المعسكر الآخر، ويمارس الخيانة الوطنية أو يدفع آخرين إلى ممارستها، بالشراء أو الابتزاز. إن أضمن طرق الحصول على أسرار الجانب الآخر هو في الوقت نفسه أطولها: إنه العميل الواعد، الذي يتم تسريبه إلى صفوف العدو من دون أن يلاحظه أحد، ويرتقي في عمله طوال سنوات، قبل أن يبلغ المركز المأمول بأسراره ومعلوماته. وليس مثال جيوم (جاسوس ألماني شرقي صار مدير مكتب مستشار ألمانيا الغربية ويلي براندت، لعب كشفه دورا كبيراً في استقالته ـ المعرّب) غير أحد الأمثلة «الكلاسيكية» هنا.

هذا المثال المثير هو في الوقت نفسه مثال تعليمي مليء بالعبر بالنسبة إلى الحكام والقادة السياسيين، الذين يجب عليهم الإفادة من الأجهزة، وأن يراقبوها سياسيا، ويعرفوا أساليبها، وما تقوم به من عمليات تخريب واختراق، ومخاطر الخيانة الوطنية الناجمة عن الإهمال، التي يتعرضون لها هم انفسهم، بالنظر إلى أن كل من له علاقة بقضايا سرية ترتبط بالدولة والجيش يصير مدار اهتمام الطرف الآخر، الذي يمكن أن «يدقق» في نقاط ضعفه وذنوبه وشهواته. إن الحياة الشخصية المضطربة للعاملين المهمين في السكرتاريا، أو لمراتب الدوائر السياسية العليا، تحمل دوماً مخاطر جسيمة على أمن الدولة.

ثمة اليوم إمكانات مفتوحة، لم تكن متاحة من قبل، تتيح لأجهزة الاستخبارات الحصول على المعلومات. يتعلق الأمر هنا بارتكاب الخيانة الوطنية عبر نشاط معلوماتي أيديولوجي الدوافع، هو الحافز الثالث، الذي

يشجع العمل لمصلحة الجهة الأخرى، إلى جانب الشراء والابتزاز. منذ صعود الأيديولوجية الشيوعية ثم الفاشية والنازية، تعاطف أشخاص من «معسكر» ما مع المعسكر الآخر، «المعادي»، ونقلوا إليه معلومات سرية ووثائق. من المعروف أن مارجريت بوفيري كرست مكتبة كاملة لهذه الظاهرة[1]، لاحقت فيها أشكال تجسدها المختلفة.

بعد العميل، الذي يسرب إلى صفوف الأعداء، يحتل أهمية خاصة المخبر العامل في مركز الاستخبارات المعادي، الذي وجد دوما، وأجبر الأجهزة جميعها على اتخاذ تدابير خاصة تحمي بها نفسها منه، أو تمكنها من كسبه. أما دوافع هؤلاء الخونة فيمكن أن تكون من طبيعة خاصة إلى أبعد حد، بينها كره النظام السياسي الذي يخدمونه. غير أن هؤلاء يواجهون بمرور الوقت صعوبة متزايدة في الحفاظ على سرية وضعهم، فيلتحقون، عندئذ، بالجانب الآخر ويكونون على قدر كبير من القيمة، ولو لوقت معين، خاصة إذا جاؤوا وفي حوزتهم قوائم بأسماء عملاء العدو. مع ذلك، فإن تأثير هاتين النتيجتين نادرا ما يكون مديدا، بسبب التغير الدائم في كوادر الاستخبارات ووسائلها وطرائقها، الذي يجعلها بحاجة إلى أرضية علمية وطيدة في عملها، وإلى رؤوس تعمل بطريقة علمية في مراكزها، يزيد من أهميتها أن أجهزة الاستخبارات ستتطلع دوماً إلى جعل تبعيتها للعملاء والجواسيس، أي «للشعب العادي»، قليلة قدر المستطاع.

العمل الاستخباري كعلم

بالتوافق مع نزعة العصر، وانطلاقا من ضرورة داخلية، شهد الجيلان

(1) مارجريت بوفيري: الخيانة في القرن العشرين، الأجزاء من 1 إلى 4. راينبيك 1955 – 1960.

الأخيران تغيرات قوية في أجهزة الاستخبارات: التي تطورت في سياق القرن العشرين من حرفة تخشى الأضواء إلى نظام علمي، علم موضوعه العدو، في الحرب، ونوايا وقدرات الحكومات والقوات المسلحة الأجنبية في الهدنة، التي حلت منذ سنة 1945 محل السلام. هذا السياق زاد أهمية المراكز، التي توجه وتراقب وتعقلن العمل، وتعطي المهام وتكتشف مصادر جديدة للمعلومات. إلى جانب الطريقة القديمة في الحصول على المعلومات من خلال صلات شخصية، اكتسبت وسائل أخرى أهمية متزايدة باضطراد في العصر العلمي، قد لا يدرك الهاوي قيمتها المعلوماتية، مع أنها تتيح لنا الحصول على معارف عالية القيمة، نذكر بها هنا، هي قبل كل شيء:

1 ـ الأدبيات الجغرافية والسياسية والتاريخية والإحصائية حول البلدان الأجنبية.

2 ـ النشرات الدائمة: الصحف والمجلات، الكتب والمجلات المتخصصة. طبيعي أن هذه أكثر سخاء في بلدان العالم الحر منها في العالم الشيوعي، مع أنها تقدم حتى هناك إشارات إلى القارئ النابه، تتضمن معارف مهمة.

3 ـ المحادثات الاستخبارية ذات المظهر البريء، التي تتم في البلدان الأجنبية، وتخالطها أسئلة هادفة.

4 ـ تقارير السفراء والملحقين العسكريين، التي ليست جاسوسية بالمعنى المألوف، لكنها تعطينا صورة عامة حول ما يجري، وتقدم لنا إطارا عاما، كما يقال.

5 ـ معلومات سرية يقدمها المتعاطفون، ووثائق يتم الحصول عليها، ونظرات نلقيها على محاضر جلسات ولقاءات.

6 ـ نتائج الاستطلاع الجوي، التي نحصل عليها في السلام أيضاً، وكانت وسيلتها في السابق طائرات خاصة، أما اليوم فيتم جمعها عبر الأقمار الصناعية، وأخيرا

7 ـ الاستطلاع الاستخباري، رصد وتقويم الاتصالات اللاسلكية، وممارسة رقابة الكترونية للأحداث والوقائع في بلدان أجنبية، فضلاً عن رصد الاتصالات الهاتفية داخل البلد الخاص، الذي لا بد منه، ما دام أمن الدولة يسمو على مصالح الفرد الخاصة.

هذه المجالات السبعة هي اليوم الأداة العلمية الرئيسة لاكتساب المعلومات في السلام، التي حلت أكثر فأكثر محل الجاسوسية، ومحل التقصي عبر الجواسيس. يضاف إليها هنا أجهزة التنصت الصغيرة، التي تسمى «البق»، وتستخدم بصورة خاصة في المعسكر الشيوعي، ولا يكون لها غير أهمية محدودة، عندما يتخذ المرء موقفا يتسم بالحذر والحيطة منها.

نكرر القول باختصار: ترتكز أجهزة الاستخبارات في العصر التقني ـ العلمي على أسس مغايرة للأسس التي قامت عليها زمن الأجداد. إنها لم تعد تتلقى معلوماتها معظم الأحيان من الجاسوسية الشخصية، بما يصحبها من ظواهر مشكوك بها كـ«الجنس والجريمة»، مع أنه لا يمكن الاستغناء اليوم أيضاً عن الجواسيس والمخبرين الشخصيين، لوجود أسئلة لا يجاب عنها غالباً إلا في عين المكان. وإن كان كل جهاز استخبارات حديث يبقى معنيا بالوسائل جميعها، ما دام هدفه تحليل وضع الدول الاجنبية ومعرفة خططها وإمكاناتها السياسية، وإعلام حكومته بكل ما يتعلق بها.

مراحل تاريخية خمس لتطور الاستخبارات

بلغ العمل الاستخباري وضعه الراهن عبر طريق طويلة، كانت مفروشة

بالنجاحات والإخفاقات. ثمة طبعا تاريخ تطور خاص بالاستخبارات، كان ولا زال مشمولا بتغير وتحول دائمين. إنه تطور له تاريخه الخاص، الذي يمكننا تمييز خمس مراحل متباينة فيه، خلال القرن العشرين وحتى يومنا، تعينت كل واحدة منها بنقاط ثقل خاصة بها.

أما المرحلة الأولى، فهي مرحلة الجاسوسية التقليدية، مرحلة التجسس الفردي والشخصي والخيانة الوطنية المكثفة. وقد طبعت التصور الشائع عن الاستخبارات السرية بطابعها، الذي لا زال فاعلا إلى يومنا، وتمحورت حول خيانة الأسرار العسكرية. وكان وجهها الأبرز قبل الحرب العالمية الأولى العقيد ريدل، رئيس مكتب الاستطلاع في مركز الاستخبارات، وضابط الأركان العامة الملكية القيصرية، الذي أفشى أسرار خطط التقدم العسكري النمسوي / المجري إلى الروس، بعد أن أفسدته ميوله الجنسية المثلية وديونه المرتفعة. وكان ماتا هاري الوجه المفتاحي الثاني في الحرب، وقد أعدمها الفرنسيون رميا بالرصاص كجاسوسة ألمانية، التصقت بها قصص مختلفة روتها الأفلام والتقارير الصحافية.

يهتم كتابنا بالمرحلة الثانية أساسا، التي تشمل الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية، وتتسم بتقدم تقنية الاتصالات، وإضفاء طابع موضوعي على أساليب جمع المعلومات، وطابع علمي على عمل المراكز، وبالإضاءة المنهجية لقدرات الجيوش والبحريات وأسلحة الجو الأجنبية، ولنواياها المحتملة. أما على الصعيد العسكري في ألمانيا، فنجد القيادة العليا لكل قسم من أقسام القوات المسلحة مكلفة بجمع المعلومات بمعونة شعبة «الجيوش الأجنبية»... الخ، وشعبة الأركان الثالثة في الأركان العامة للوحدات، بينما يختلف تركيب شعبة حماية القيادة العليا للقوات المسلحة عن ذلك. تتشابه بنية الاستخبارات الفرنسية بمكتبها الثاني

ومكتب الاستعلامات مع التنظيم الألماني، وتتشابه معه أيضاً بنية جهاز الاستخبارات التابع للأركان العامة البريطانية والاستخبارات السرية، حيث يعتبر تدبير وجمع المعلومات وتقويمها وتحليلها أموراً حاسمة في كل مكان.

تميزت المرحلة الثانية بتراجع الجاسوسية من الطراز القديم، رغم أنه تمت ممارستها بكل الوسائل أول الأمر. إلا أنها ستصاب بالشلل على يد شرطة البلدان الشمولية السرية، وسيجد ممثلوها أنفسهم مجبرين على الهرب منها. لذلك كانت ألمانيا ترصد من سويسرا والبلدان الغربية، والاتحاد السوفياتي من دول البلطيق وهنغاريا ورومانيا، بعائد تناقصت نتائجه بمرور الوقت، وخاصة منها تلك التي جاءت بها المكافحة الألمانية، التي تم تحييدها تماماً قبل الغزو سنة 1944، مثلما تم تحييد وتضليل الجاسوسية الغربية قبل هجوم الأردين، مما جعله مفاجأة تامة بالنسبة إلى الحلفاء. رجحت في طور الحرب الأخير من سنة 194 كفة الخيانة الوطنية بدوافع أيديولوجية، بحيث يمكننا التحدث عن إفشاء كامل لأسرار العسكرية الألمانية.

التطور بعد 1945

لم يقيض لاستبعاد الجاسوسية، الذي عرفته الحرب العالمية الثانية، أن يستمر لفترة طويلة، فقد عادت من جديد بعد نهاية الحرب مباشرة، لهدف قيض له أن يقرر التطور اللاحق لتاريخ العالم. ذلك أن الاتحاد السوفياتي رجع إلى هجومه الاستخباري السري، الذي استخدمه ضد أقوى حلفائه آنذاك: الولايات المتحدة الأميركية. حدث هذا سنة 1945، فبدأت به المرحلة الثالثة من تاريخ الاستخبارات في القرن العشرين.

كانت أميركا تحتكر سنة 1945 السلاح النووي، وكان كسر هذا

الاحتكار هدف السوفيات، الذين قرروا التجسس على أسرار إنتاج الأسلحة الذرية، وإيصالها إلى موسكو. وقد جاءت المبادرة لذلك من ستالين شخصيا، فأعدت الخطة وتقررت طريقة التنفيذ بدهاء. واستخدمت إدارة الاستخبارات العليا لدى الجيش الأحمر قادة عملاء على درجة عالية من التأهيل ومخبرين تمكنت من شرائهم، وخاصة المتعاطفين معها لأسباب أيديولوجية من العاملين في المختبرات النووية الغربية. وقد سجل العقيد السوفياتي الأسطوري رودلف آب/أغسطسل اسمه في تاريخ أجهزة الاستخبارات، بسبب حسن إدارته للعملاء، وسجل روزنبرج وجرينجلاس اسميهما كعالمين أفشيا بأسرار، ودخلت أسماء هاري جولد، د.كلاوس فوكس، ونان ماي وبرونو بونتيكورفو تاريخ الأجهزة السرية بسبب إفصاحهما عن «معلومات علمية». هؤلاء جميعا يمكنهم التباهي بأنهم غيروا بنشاطهم العالم، وصنعوا تاريخه. إن العالم الواحد، قد انقسم، وتم كسر احتكار أميركا النووي في وقت مبكر، وبدأ الاستقطاب في القوى العالمية، الذي ساد سنوات الحرب الباردة.

تعتبر حقبة هذه الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي المرحلة الرابعة من التطور التاريخي لاستخبارات القرن العشرين، الذي لم يبق فيه شيء من العالم الواحد، والسلام العالمي، والسلام الأميركي. لقد بدأت الحرب في الظلام من جديد في اللحظة ذاتها، التي صمتت فيها الأسلحة التقليدية. غير أنها لم تبق حرباً من طرف واحد، لأنها انكشفت مع فرار إيجور جوزنكو إلى الغرب ومن تبعه فيما بعد، ولأنه كان هناك جوع لا يرتوي إلى المعلومات من البلدان الأخرى.

هذا الجوع إلى المعلومات نقله الاتحاد السوفياتي بعد الحرب إلى الدول التابعة له، وكان لدى معظمها أجهزة استخبارات من الطراز

السوفياتي، تقوم بمهام هجومية إلى أبعد حد، وفي المقدمة منها استخبارات جمهورية ألمانيا الديموقراطية. هنا، لم يعد الأمر يتعلق بالتجسس على أسرار عسكرية، بل تحولت الجاسوسية إلى عمل شامل، هو سمة المرحلة الخامسة، التي نعيشها اليوم.

التجسس الشامل

تعتبر التجارب التي كان على جمهورية ألمانيا الاتحادية المرور بها في السنوات الأخيرة مميزة بالنسبة إلى المرحلة الخامسة من تاريخ تطور الاستخبارات في القرن العشرين، التي تعتبر مرحلة تجسس شامل. شمل الجوع إلى المعلومات لدى الكتلة الشيوعية الجميع وكل شيء. ورغم الجهود الأكثر نبلا، التي بذلتها الحكومات الغربية من أجل الانفراج وكسر حدة التناقضات، فإن هذا المجال لم يشهد أي استرخاء في الهجوم الاستخباري السوفياتي، بل حدث العكس، ووصل الأمر إلى حد تسريب عميل إلى مكتب المستشار الألماني ؛ وليت الأمر وقف هنا، إذ تشير حالات أخرى متفاقمة من الجاسوسية الشرقية إلى أن جمهورية ألمانيا الاتحادية تحولت إلى ميدان تجسس شامل، وإلى موقع يعج بآلاف العملاء الشرقيين، الموجودين في كل موقع من مواقع السياسة والحكومة والاتحادات والنقابات، وكل غرفة من غرف السكرتاريا والمعامل ومراكز البحث والمخابر، بل ان التجسس على المصانع تطور إلى حرفة متخصصة شاملة. أما عدد هؤلاء العملاء السريون فهو كبير كعدد المخبرين المتطوعين والغافلين والواعين، الذين يرفدهم عدد غير معروف من العملاء المحتملين والصامتين، ممن يقومون بمهام محددة بدقة، وسيتم تنشيطهم عند وقوع الحرب، أو هم في الطريق إلى مراكز يجمعون فيها المعلومات التجسسية المطلوبة. هؤلاء المجهولون الكبار والصغار يجلسون في الوزارات، وغرف

السكرتاريا، ومكاتب الإدارة والتقنية والرسم، ويثرون وزارة أمن الدولة في برلين ـ بانكوف، بسيل معلومات جديدة لا يتوقف. انتقل مركز ثقل التجسس، في المرحلة الخامسة، من المجال العسكري إلى المجالات السياسية والاقتصادية والتقنية.

تغطي الجاسوسية الشرقية آخر وضع بلغته العلوم الطبيعية في الغرب، وعمل الأحزاب والاتحادات، والأحداث الاقتصادية. إنها تريد ببساطة معرفة كل شيء، في حين لا يجد الطرف الآخر صعوبة في اختراق جمهورية ألمانيا الاتحادية، التي تفتقر إلى شرطة دولة سرية كلية الحضور، ويستخدم مواطنوها اللغة ذاتها المستخدمة شرق ألمانيا، وتربطهم صلات قربى بمواطني الدولة الألمانية الأخرى، ويجهل رأيها العام طرق الجاسوسية وطرقها ووسائلها، ويفتقر إلى اليقظة الضرورية حيال الأعمال التجسسية المعادية، هذا إذا لم نقل: إن كتلته الأكبر عديمة الاكتراث وساذجة. صحيح أنها تقرأ روايات وتشاهد أفلاماً عن الجاسوسية، تحفل بالفضول والإثارة، لكنها لا تطرح على نفسها أسئلة حول المخاطر والتهديدات المحتملة، الناجمة عن الجاسوسية، بالنسبة إلى أمن الدولة الألمانية.

من الضروري قول كلمة إضافية حول الجاسوسية العسكرية والتجسس على أسرار عسكرية. إن أهميتها تتراجع، ولم يعد اهتمامها ينصب على انتشار القوات، بل يستهدف قبل كل شيء على الأسلحة الحديثة ومنظومات الأسلحة وتطورها. إلى هذا، غدا الفضاء المجال الذي يمكننا من إخضاع تحركات القوات لرقابة دائمة، والذي يفيد الطرفان منه في الرصد المتبادل، وجعل المفاجآت مستحيلة الوقوع. هذا الاستطلاع الجوي من طراز جديد كشف عن إمكانات غير محدودة، أدت إلى بلوغ البصريات والتصوير عن بعد درجة من الكمال يكشف معها أصغر الأشياء، ويعرف جميع أنواع التغير التي قد تصيب الهيئات الأرضية.

نقطة الاستخبارات الحساسة

هناك نقطة في الجهاز الاستخباري السري تبقى حساسة على الدوام، يلخصها السؤال حول ما إذا كانت المعلومة التي تم الحصول عليها، أو تحليل الوضع الذي تم إجراؤه، سـ«يصلان» فعلا إلى «فوق»، وسيحظيان بالاهتمام، وسيتم استخلاص النتائج الضرورية منهما. إن أفضل جهاز استخبارات يمكن أن يعمل في فراغ، هذا ما حدث إبان الحرب العالمية الثانية بسبب هتلر: الذي رفض الاهتمام بنتائج الاستطلاع الجوي، رغم أنها كانت تقدم معلومات سريعة، دقيقة، وكاملة معظم الأحيان عن العدو وتحركات قواته، كما رفض أن تؤثر تحليلات الأوضاع، التي كانت تجريها شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، في قراراته، أو تحددها. هكذا ضاعت إنجازات الاستخبارات الألمانية. وتبدد إنجاز قيادة القوات المسلحة الأعظم سنة 1944، لأن المفاجأة الناجحة لم تكن كافية بمفردها لإحراز النجاح النهائي، في ظل موازين القوى التي كانت قائمة آنذاك. بالمقابل، بالغ الحلفاء الغربيون في تقدير معلومات استخبارية ظنوها أكيدة، وسمحوا عند نهاية الحرب في سنة 1945، بحرفهم عن هدفهم الأصلي برلين، من خلال «حصن ألب» توهموا وجوده. وللعلم، فإن أشياء كهذه ستحدث دوما، لأنها متأصلة في النواقص والعيوب اللصيقة بالطبيعة البشرية. بالمناسبة، يمكن بالتأكيد تقييد عدد وحجم ونتائج الإخفاقات تقييدا شديدا في هذا المجال، إذا ما رأينا في التاريخ معلما لنا، يضع بصورة متكررة أمام أعيننا ما هو ضروري وصحيح في الوضع الملموس، ويواجه به الإهمال، الذي يقود إلى الهلاك.

عبر الحرب العالمية الثانية الباقية

ثمة عبر علينا استخلاصها من الحرب العالمية الثانية، لأنها عصارة

تجاربها، نوردها في ما يأتي:

1 ـ يعتبر استخدام الاستخبارات، مثله مثل قيادة الدولة وإدارة الحرب، فنا يتعين بالسياسة ويرتكز على أرضية علمية. فلا بد أن يتحرر من أي تفكير رغبي، ويكون يقظا حيال التضليل والخداع الذاتي.

2 ـ ليس الحصول على المعلومات السرية غير مجال جزئي وحسب من العمل الاستخباري، الذي يجب أن يعرف كيف يستنفد إمكانات تدبير المعلومات جميعها، التي يتيحها الأدب ووسائل الإعلام بأنواعها المختلفة، والأحاديث الاستعلامية والإمكانات التقنية الجديدة.

3 ـ ثمة أمر حاسم الأهمية هو وجود «رأس» موحد لأجهزة الاستخبارات ودوائر الأمن جميعها، ينسق ويقوم ويحلل ويخبر الحكومة بانتظام بالمعارف التي تم الحصول عليها. ولا بد أن يكون التعاون وثيقا هنا.

إلى ذلك، لا مفر من تعريف الرأي العام بالقضايا الاستخبارية، لأنه يمكن كشف جميع الجواسيس على وجه التقريب، عندما يكون الرأي العام يقظا. نذكر هنا بالمدبرة المنزلية السيدة روزن، التي كشفت خائن بلده العقيد السويدي فينرشتروم. ثمة دوماً أخطاء يرتكبها الجواسيس، تتكفل بكشفهم، خاصة وأنه لمواطني الدولة في المجتمع الحر التزامات مغايرة لالتزامات مواطن الدول الشمولية، حيث لشرطة الدولة السرية بأجهزتها المختلفة حضور كلي.

تعتبر «التعبئة الأخلاقية» إحدى مستلزمات أمن الدولة، وضرورة ازدادت أهميتها باضطراد. ينتمي إلى هذه التعبئة الوعي السياسي العام وإدراك المسؤولية المشتركة. «اليقظة هي ثمن الحرية!»: هذا الشعار لا يصلح فقط للشراكة في حلف شمال الأطلسي، بل ينطبق أيضاً على جميع مواطني الدولة الواعين، فالحرية لها ثمن علينا دفعه، يكمن في مقاومة البدايات، ورفض إخضاع حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وشعورنا

وفكرنا، لإملاءات موظفي أي نظام. أليس لنا طريقتنا الخاصة، تاريخنا الخاص، وبذلك التزامنا التاريخي العالمي؟. يعتبر جهاز الاستخبارات اليوم حارسا ميدانيا وموقعا متقدما في ميدان الدفاع عن هذه القيم.

obeikandl.com

كلمة أخيرة

آلة الترميز «إنيجما»

بقلم ليو هيب: عميد خارج الخدمة[1]

حاول رجال الدولة والقادة الميدانيون، منذ أقدم الأزمنة، استخدام شيفرة سرية لحماية الأخبار من نظرات غير المفوضين بمعرفتها، أكانت أوامر أم بلاغات أم معلومات مهمة من مختلف الأنواع. لم يكن جايوس يوليوس قيصر، بالشيفرة السرية التي حملت اسمه، أول من فعل هذا، لكنه كان أشهرهم من دون شك.

بمرور الزمن، نشأت في الدول المختلفة، وخاصة في القوى العظمى،

(1) بعد مناصب متنوعة في قيادة الأركان العامة، كان هيب -بين أشياء أخرى - رئيس أركان فيلق، وغدا في آب/أغسطس من سنة 1944 رئيس أركان استخبارات الجيش ونائب جنرال سلاح الإشارة البرت يراون. بعد توحيد قيادة الجيش وقيادة القوات المسلحة وتقسيم قيادة القوات المسلحة إلى قيادة عليا شمال وقيادة عليا جنوب في آذار/مارس من سنة 1945، تولى هيب قيادة اتصالات استخبارات القوات المسلحة لدى القيادة العليا جنوب في منطقة بيرشتيسجادن / بادرايشنهال. أنهى هيب خدمته في الجيش الاتحادي كعميد وجنرال آمر للفيلق الرابع في أولم.

obeikandl.com

أجهزة خدمة خاصة على هذا الشكل أو ذاك، مهمتها وضع شيفرة سرية خاصة بها، وفك رموز الشيفرات السرية الأجنبية.

وقد جسد هذه الأجهزة في الرايش الألماني بعد الحرب العالمية الأولى مكتب الترميز في وزارة الخارجية ومركز ترميز قيادة الجيش، الذي كان مندمجا في جهاز الاستخبارات السري (المكافحة). وقد تحول المركز الأخير قبل الحرب العالمية الثانية، بوصفه شعبة ترميز من «المكافحة»، إلى مجموعة خدمة اتصالات قيادة القوات المسلحة في أركان قيادتها العليا.

استخدم في الاتصالات اللاسلكية الديبلوماسية والعسكرية العامة حتى العشرينيات من القرن الماضي ما كان يعرف بالشيفرة السرية اليدوية أو طريقة التشفير اليدوية. لكن الرايش الألماني بدأ في غمرة الحرب العالمية الأولى يطور آلات ترميز (تشفير) جديدة. وفي نحو سنة 1928 أدخل جيش الرايش إلى الخدمة آلة تشفير أسماها إنيجما (كلمة يونانية تعني الأحجية)، وهي جهاز مفاتيح نصف أوتوماتيكي، طبق ما عرف بطريقة الاستبدال، واستخدمه حتى نهاية الحرب العالمية الثانية القيادة العسكرية العليا، وجميع فروع القوات المسلحة، وانتشر حتى مستوى فرقة في الجيش، وتم تحسينه بمرور الوقت من خلال تجهيزات إضافية ملائمة.

اعتبرت «الإنيجما» عند إدخالها إلى الخدمة آلة ذات متانة تشفيرية رفيعة. لكن الجانب الألماني أدرك في مرحلة مبكرة نسبيا أن «حصانتها ليست مؤكدة»، واعتبر أن فك رموز الرسائل البرقية التي تم تشفيرها بواسطتها أمر ممكن، في حال توفر شروط محددة. ثم أيد القسم المختص بمراقبة موثوقية الشيفرة السرية الخاصة لدى شعبة التميز في شهادة حررها نحو سنة 1944 سحب «الإنيجما» من التداول. لكنه لم يتوفر آنذاك بديلا أفضل، رغم بذل جهد دائم لابتكار أجهزة جديدة. هذا الظرف جعل الألمان يحاولون حتى

نهاية الحرب وضع لوائح تطبيقية محددة، كانت لا تني تعدل وتزداد تشددا، لمنع العدو من فك شيفرتهم في وقت مبكر.

استخدمت القوات المسلحة إلى جانب الـ«إنيجما» الإضافة (ج) إلى المبرق، التي استعملت كجهاز تشفير من قبل الدوائر القيادية العليا في الرسائل والاتصالات اللاسلكية. هذه الإضافة (ج) كانت، بقدر ما هو معروف اليوم، عصية على الاختراق[114].

اقتصرت اتصالات القوات المسلحة اللاسلكية خلال الحرب العالمية الثانية على ميدان القتال أساسا. وكانت تموه أو تحجب بواسطة تدابير تمويه ولوائح تخاطب ضعيفة الحماية ضد الاستطلاع اللاسلكي المعادي، لكنها اعتبرت مرضية رغم ذلك، بما أن الأخبار التي يتم تبادلها كانت تتغير بسرعة تبعا لمجريات ميدان المعارك، كما كان ممكنا ترجمتها إلى أفعال حربية. اشتغل الجانب الألماني لتطوير لغة تشفير صالحة للاستخدام الميداني، إلا أنه لم يتم بلوغ نتيجة قابلة للتطبيق حتى نهاية الحرب.

لم تكتف وزارة الخارجية باستعمال الـ«إنيجما» في اتصالاتها الديبلوماسية البرقية، بل عملت بشيفرة سرية أخرى كانت «حصانتها ليست مؤكدة»، لكنها لم تكن ملائمة للقوات المسلحة، بسبب حجم اتصالاتها البرقية الهائل، والتغير المفاجئ والمتكرر لمواقعها وعلاقات الإمرة فيها.

أخبرتنا إصدارات فرنسية وبريطانية وأميركية قبل بضع سنوات أنه كان باستطاعة البريطانيين منذ سنة 1941 فك برقيات القوات المسلحة الألمانية، التي كانت تشفر بواسطة الـ«إنيجما»، وأن هذا كان يتم في وقت ملائم إلى درجة أن القيادة العسكرية كانت تتمكن من تقويم ما فيها من معلومات، واستخدامها في قراراتها.

كان من الصعب على الجانب الألماني، الذي فاجأته هذه الإصدارات، فحصها والتأكد من صحتها، بسبب افتقاره إلى مستنداتها الأصلية أول الأمر.

بعد أكثر من ثلاثين عاما على نهاية الحرب العالمية الثانية، فتح البريطانيون الآن أراشيفهم بصورة جزئية. كما التقى سنة 1978 عارفون بالخبايا وضباط ومؤرخون، بينهم عدد كبير ممن شاركوا مباشرة في الحرب العالمية، في ندوة مشتركة كبيرة عقدت في جمهورية ألمانيا الاتحادية، لتبادل الخبرات والاستنتاجات.

لن يشك أي مراقب نقدي ألماني، من الآن فصاعدا، في واقعة أن الجانب الآخر تمكن في مرحلة مبكرة جداً من فك شيفرة آلة «إنيجما»، التي اعتبرتها القيادة العملياتية والتكتيكية الألمانية موثوقة نسبيا حتى نهاية الحرب، وأنه كان بوسع البريطانيين فك رموز تلك الرسائل البرقية العسكرية الألمانية، التي كان استطلاعهم البرقي يلتقطها.

عندما يطرح السؤال حول أسباب نجاح الحلفاء في فك شيفرة الرسائل البرقية لـ «إنيجما»، نستطيع إيراد ما يأتي:

- الخيانة التي ارتكبها قبل الحرب العالمية الثانية ألمان عملوا مع أجهزة الاستخبارات المعادية، وأوصلوا مستندات حول بناء الآلة التقني (وتذكر الأدبيات تفاصيلها).
- الانتهاك الفظ جزئيا، الذي مارسته المراكز اللاسلكية في القوات المسلحة الألمانية تجاه اللوائح التطبيقية المتعلقة باستخدام «إنيجما». نشير، من أجل توضيح هذه النقطة، إلى أن تدريب كوادر سلاح الإشارة لم يكن على ذلك القدر من الجدية، الذي عرفه في ما مضى، بسبب التوسع الهائل للقوات المسلحة قبل الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعدها.
- المعارف الكبيرة والإنجازات البارزة لأجهزة فك الشيفرة البولونية والفرنسية والبريطانية. إلى هذا، فإن جهاز فك الشيفرة البريطاني، الذي يجب أن نعزو إليه بصورة حصرية تقريبا النجاحات الفعلية لفك الشيفرة الألمانية خلال الحرب، حظي بدعم هائل من أعلى المواقع السياسية

والعسكرية، فتمكن من بناء منظمة شاملة، رفيعة القيمة علميا وتقنيا، بل إنه نجح آنذاك في بناء آلة حسابية شبيهة بالكمبيوتر أسماها البريطانيون «القنبلة»، كانت في وضع يمكنها من إجراء عمليات حسابية كبيرة بسرعة ودقة غير مسبوقتين حتى ذلك الحين.

- الحفاظ على السرية المطلقة في كل ما يتعلق بطريقة عملها ونتائجها، حتى إنه لم تنشر أي معلومات عنها إلا بعد أكثر من 25 سنة على نهاية الحرب. كما تشير جميع الظواهر إلى أن البريطانيين لم يخبروا حلفاءهم السوفيات بنجاحهم في فك شيفرة الـ«إنيجما»[115]. ليس معروفا، بالمقابل، ما إذا كان هؤلاء قد نجحوا بدورهم في فك شيفرة الرسائل البرقية الألمانية، التي كان يتم إرسالها بواسطة الـ«إنيجما».

لدى إجراء مقارنة نقدية، يبدو أداء الجانب الألماني سيئا أول الأمر خلال صراع أجهزته الخاصة بفك الشيفرات ضد الحلفاء الغربيين. بيد أن بحثا متأنيا سرعان ما سيثبت أن هذا الجهاز أحرز بدوره نجاحات مرموقة في فك الرسائل البرقية العسكرية والديبلوماسية المعادية، وأن الجهات المتخصصة في الدول المعادية أخفقت آنذاك في بناء آلات تشفير حصينة للاستخدام العسكري. وإنه لأمر مؤسف جداً أن لا توجد بعد دراسة شاملة، موثوقة علميا وقائمة على وثائق أصلية، حول طريقة عمل ونتائج ونجاحات جهاز فك الشيفرات الألماني.

ثمة تأكيد نجده في كتابات كثيرة، يزعم أن نجاحات جهاز فك الشيفرات البريطاني كانت حاسمة بالنسبة إلى مآل الحرب العالمية الثانية. هذا الزعم مبالغ به من دون شك، ذلك أنه إلى جانب الاستطلاع الأرضي والجوي، وكذلك الاستخبارات السرية، كان الاستطلاع اللاسلكي مع جهاز فك التشفير مصدرا واحدا فحسب، وإن كان وفير العائد، من مصادر الحصول على المعلومات حول العدو. إلى هذا، يجب أن نأخذ في الحسبان

أن القوات الألمانية المسلحة كانت تمتلك حتى اليوم الأخير من الحرب العالمية الثانية شبكة سلكية ممتازة غطت سائر الجبهات على وجه التقريب. وكانت الفيالق المدرعة تتصل بصورة يومية تقريبا مع القيادة العليا بالهاتف، خلال حرب الحركة السريعة، لأنه كان ممنوعا إصدار الأوامر والبلاغات المهمة عبر اللاسلكي، عندما تتوفر الاتصالات السلكية. إن شعار رئيس اتصالات القوات المسلحة، جنرال سلاح الإشارة إيريش فيلجيبل، الذي يقول «الإبراق خيانة وطنية»، كان متأصلا في دم ولحم كل قائد في سلاح الإشارة. كان فيلجيبل يعرف تمام المعرفة لماذا قال هذا التأكيد المقتضب، فهو لم يكن فقط خبير لاسلكي مجرباً، بل كان كذلك خبير استطلاع لاسلكي محنكاً، مثلما كان ذات مرة قائد مركز التشفير في قيادة الجيش. إلى هذا، فإن التعليمات العملياتية بعيدة المدى، التي كانت توسم غالباً بدرجة من السرية تجعل منها شيئاً «خاصا بالرئيس»، لم ترسل مطلقا باللاسلكي، ولم ترسل عموما بالهاتف، بل كانت ترسل بالبريد. نذكر هنا بهجوم الأردين، الذي كان مفاجأة تامة بالنسبة إلى الحلفاء. صحيح أن هذه الأسس انتهكت هنا أو هناك، كما كانت هناك ظروف خاصة في ميادين قتال معينة مثل شمال أفريقيا، حتمت استخدام اللاسلكي في الاتصالات كما في عمليات جوية وبحرية معينة.

لا تمس هذه الملاحظات التقييدية بالإنجازات البارزة لخبراء بولونيا وفرنسا وبريطانيا في الشيفرات السرية خلال تلك الفترة. إن أهمية عملها بالنسبة لإدارة الحرب الحليفة، والضرر الذي سببته للجانب الألماني، كانا هائلين بالتأكيد. وتشير المستندات المتوفرة حتى الآن إلى أن نجاحات جهاز فك الشيفرة البريطاني كانت عظيمة بصورة خاصة في رصد وفك شيفرة إتصالات الألمان اللاسلكية قبل وبعد شمال أفريقيا، وفي معارك المواكبة التي عرفها المحيط الأطلسي.